ملامح المنـهج الآنـي الوصفي في التراث اللغوي العربي

- مقاربة لسانية بنوية -

الدكتور غويرق حميد أستاذ بحث (أ)

مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية

وحدة ورقلة .

hamidgh1404@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2017/08/02	2020/03/09	2020/08/10

ملخص:

اعتمد علماء العربية القدامى في دراساتهم اللغوية على المنهج الوصفي الآني ، ذلك لأن أية دراسة علمية دقيقة لا بدّ أن تعتمد على جمع الظواهر الخاصة بالعلم المعين،ثم دراستها بعد ملاحظتها وتجريبها والخروج بنتائج أو قواعد تخص هذه الظواهر.

وهكذا بدأ العرب منذ الأجيال الأولى جمع المادة اللغوية من أصولها وأماكنها الصحيحة التي اعتقدوا أنها مناطق للغة العربية الفصيحة البعيدة عن اللحن، وعن مناطق التأثر باللغات الأجنبية المحيطة بشبه الجزيرة العربية . وبعدما رجع هؤلاء العلماء إلى حواضرهم درسوا هذه المادة اللغوية المتحصل عليها وصنفوها إلى فروع منها ما هو مختص بمتن اللغة (علم المعاجم) ، ومنها ما هو مختص بقواعد اللغة (الصرف والنحو) ومنها ما يختص بالأساليب (النقد والبلاغة) .

وإذا ما حاولنا إيجاد صلة بين هذا المنهج في الدرس اللغوي العربي المتقدم والدرس البنوي الحديث .. لرأيناها واضحة المعالم من خلال الأسس التي قام عليها المنهج البنوي الذي برز إلى الوجود بدراسات فيردينان دي سوسير Ferdinand de Saussure المنشئ الحقيقي لهذا المنهج على لسان الدارسين المحدثين.

الكلمات المفاتيح :

منهج ، وصفي ، آني ، تصنيف ، بنوية .

Abstract:

Ancient arab scholars based themselves in their linguistic studies on the descriptive and synchronic approach, given that every exact scientific study has to base itself on the collection of all the phenomena specific to this science in order to observe it, experiment it and study it to find results and draw up rules which concern these phenomena.

This is how the ancient arab scholars started, since the first generations, to collect the linguistic material from its sources and in the right places, which were considered as areas where the Arabic language was still pure and far from being altered by the misuse and the influence of the foreign languages of the countries which surround the Arabian Peninsula. When they returned to their cities, learned Arab scholars had begun to study this linguistic material and to classify it in categories and specialized branches such as lexicology, syntax, grammar, stylistics and rhetoric.

And if we want to find a link between this method of the old arab linguistic school and the modern constructivist linguistics, we shall certainly find that this link is obvious, and it through foundations and bases on which constructivism was established thanks to the efforts of Ferdinand De Saussure, the founder of this approach according to modern scholars.

Keywords:

Approach – Descriptive – Synchronic – Classification - Constructivism

Résumé :

Les anciens savants arabes s'étaient basés dans leurs études linguistiques sur la méthode descriptive et synchronique, étant donné que chaque étude scientifique exacte doit se baser sur la collecte de tous les phénomènes spécifiques à cette science afin de l'observer, l'expérimenter et l'étudier et sortir avec des résultats et des règles qui concernent ces phénomènes.

C'est ainsi que les arabes avaient commencé, dès les premières générations, à collecter la matière linguistique depuis ses sources et dans les bons endroits, qui étaient considérés comme des zones ou la langue arabe était encore pure et loin d'être altéré par le mauvais usage ou l'influence des langues étrangères des pays qui entourent la péninsule arabique. Dès leur retour à leurs villes, les savants arabes avaient commencé à étudier cette matière linguistique et la classer en catégories et branches spécialisés comme la lexicologie, la syntaxe, la grammaire, la stylistique et la rhétorique.

Et si on veut trouver un lien entre cette méthode de l'ancienne école linguistique arabe et la linguistique constructiviste moderne, on trouvera certainement que ce lien est évident, et ce à travers les fondements et les bases sur lesquelles le constructivisme était fondé suite aux études de Ferdinand De Saussure, le fondateur de cette méthode, selon les chercheurs.

Les mots clés:

Méthode – Descriptive – Synchronique –Classement – Constructivisme.

تمهيد :

تتجلى أهمية البحث العلمي في الحياة الإنسانية كونه العامل الأساس في الارتقاء بمستوى الإنسان فكرياً وثقافياً واجتماعياً، بحيث تتحقق فيه أهلية الاستخلاف في الأرض، ذلك الاستخلاف الذي شَرف الله سبحانه وتعالى به الإنسان دون غيره من الكائنات تشريفاً وتكريماً.

ولابد للبحث العلمي في كل ميادين الحياة من سبيل جلي و منهج واضح كي يصل إلى مبتغاه وهو خدمة البشرية وتيسير سبل عيشها، ومن المناهج التي انتهجها العلم خاصة في ميدان اللغة : المنهج الوصفي .

يعد هذا المنهج من أكثر المناهج شيوعا وانتشارا في عالم البحوث الإنسانية عامة، والبحوث اللغوية على وجه الخصوص، حيث لا يمكن الاستغناء عنه، فالدارس لأية ظاهرة ضرورية يجب أن تتوفر لديه أوصاف دقيقة للظاهرة التي يدرسها بالوسائل المعينة والمناهج المحددة لها. والبحث وفقه يعد استقصاء أو استقراء ينصب على الظاهرة المدروسة، كما هي قائمة بقصد وصفها وتشخيصها، وكشف علاقاتها بين العناصر والجوانب الرابطة بينها.

ظهرت البدايات الأولى للمنهج الآني الوصفي اللغوي في فترة تاريخية مبكرة تسبق الميلاد بحوالي قرنين على الأقل، وذلك من خلال وصف علماء اللغة الهنود للغتهم السنسكريتية، فقد جاء وصفهم منطلقا من اللغة ومنتهيا إلى نتائج لغوية خالصة تصف كل جوانب هذه اللغة بدقة. وقد استفاد بعض اللغويين في القرن الثامن عشر من هذه الوجهة الوصفية في مقارنة اللغات الأوروبية باللغة السنسكريتية، ولما ازداد الاهتمام باللغة المنطوقة في القرن التاسع عشر أدى هذا الاهتمام إلى ظهور علم اللسان الوصفي كعلم يعطي اهتماما كبيرا للغات الحية، ويقلل من الاهتمام بالشواهد المكتوبة .

غير أن الميلاد الشرعي لهذا العلم لم يتجل إلا بعد نشر محاضرات دي سوسير، والتي حددت ملامح هذا المنهج، وقد أثمر ذلك في اتجاه الدراسات الوصفية في أمريكا نحو اكتشاف اللغات المجهولة من المجموعة الهندية الأمريكية، مع الاهتمام بالنزول إلى حقل التجربة، واتجه الأوربيون إلى دراسة اللهجات التي ظلت تعاني ردحا من الزمن من الإهمال واللامبالاة.

ولقد كان لدي سوسير مؤاخذات على بعض الدراسات التي أهملت دراسة اللغة من واقع النشاط الفعلي لمتكلميها، كما آخذهم على إدخال العوامل التاريخية في أحكامهم التي تتصل باللغة المعاصرة.

مبادئ المنهج الوصفي :

ينبغي على الباحث اللساني الوصفي أن ينطلق من مبادئ وأصول في وصفه الظاهرة اللغوية، من هذه المبادئ :

- يرتكز الاهتمام الأول لأصحاب هذا المنهج على الأصوات أي اللغة المنطوقة ، وعلى التراكيب النحوية للغة المتكلمة ، ويتجنب – من غير إهمال تام – الاعتماد على المادة المكتوبة من ناحية، وتتبع أثر القواعد النحوية التقليدية من ناحية أخرى، بمعنى أن الوصف لأية لغة ينبغي أن يبدأ من الهيئة المنطوقة أي الكلام المنطوق لا المكتوب ، وهو المنطلق الأساس، يقول في ذلك تمام حسان :"... ولقد أصبحت الدراسة الوصفية للغات قائمة على دراسة اللهجات الحية من أفواه متكلميها، وأصبح لزاما على طالب هذه الدراسة أن يختار أحد أبناء اللهجة المطلوبة ويلزمه ويسجل ما يقوله عن طريق نظام هجائي يجعل لكل صوت ينطقه هذا المتكلم رمزا كتابيا خاصا . وعدد الأصوات في كل اللغات تقريبا أكثر من عدد الحروف، ومن ثم أصبح من الضروري أن يتم اختيار رموز لهذه الكثرة من الأصوات ..."[1] و يقودنا هذا القول من تمام حسان إلى نقطة هامة يرتكز عليها البحث الوصفي وهي : اعتماد الباحث الوصفي على أحد أبناء اللغة الذين يتكلمون بها، وهو الذي يعرف باسم الراوي اللغوي، والراوي اللغوي له شروطه من حيث الثقافة، ويكون انتقاؤه ممن يحسنون تمثيل المستوى اللغوي المراد تحليله[2]، ويترك له المجال في الحديث أو سرد قصة، والباحث يسجل ما يسمع، كي يقوم بعد ذلك بعملية التقسيم والتصنيف، وفي النهاية يأتي دور التقعيد، وقد ينظر الباحث في المتشابهات ثم يصنفها، فيبدأ بوصف الفاعل على أنه مرفوع والمفعول منصوب .."[3]
- يبحث المحلل الوصفي في اللغة المستعملة بالفعل لا الافتراضية ، أي لغة الحياة اليومية التي يستعملها الناس ويتواصلون بها فيما بينهم، لا تلك التي صنعها النحويون المتمحلون، فعلى الدارس اللغوي أو الباحث أن يصف، لا أن يسمع الأمثلة ويبني عليها القواعد، وعليه إسقاط القواعد التي تعتمد على أمثلة مصنوعة، فعالم اللغة " ينبغي له أن يصف لا أن يفرض القواعد ."[4]

- يكون اعتماد الباحث الوصفي على تحليل الأنظمة اللغوية (النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي) ويقوم بتحديد مستوى لغوي معين يدرسه دون أن يخلط بينه وبين باقي المستويات، كي يقرر الواصف الخصائص المميزة لكل الأنماط .[5]
- لا ينبغي اللجوء إلى الأقيسة والتعليلات، والحكم بالخطأ والصواب على المستنبطات، لأن هذا من سمات المنهج المعياري الذي هو نحو تعليمي، يحتاج فيه المتكلم إلى قاعدة أو مثال لغوي ليكون أمامه حتى يلجأ إليه عند الحاجة، أما في المنهج الوصفي فلسنا بصدد التعلم والتعليم، وإنما بصدد الوصف، ثم إننا لسنا معنيين بالإجابة عن (لماذا) وإنما يهمنا الإجابة عن (كيف).[6]
- يجب على الباحث اللغوي الوصفي استبعاد الأحكام الجمالية أو التقييمية في اللغة، وعليه أن يبحث فيها من حيث كونها أصوات ومفردات وتراكيب ، فيدرسها دراسة مجردة بغض النظر عن قيمتها أو مكانتها، فيصل إلى قوانين وقواعد تتسم بالكلية، ومن ثم يمكن تطبيقها على أكثر من لغة .
- من النقاط الرئيسة تحديد الفترة الزمانية و الرقعة المكانية، فلا يعترف المنهج الوصفي بتعدد الأماكن المجموع منها النصوص اللغوية، كما أنه لا يعترف بطول الفترة الزمنية التي تدرس فيها اللغة، وإنما ينبغي أن تحدد، فهناك فرق بين دراسة اللغة تاريخيا، ووصفها في فترة محددة .[7]
- إن المنهج الوصفي يعتمد على وحدة النصوص المستشهد بها، إذ يرى العلماء اللسانيين المحدثون أنه حتى نتبين خصائص النصوص اللغوية ينبغي أن تكون هنالك مستويات مختلفة لها، فنصوص الشعر ينبغي أن تجمع وتبحث وحدها بمعزل عن النثر، والنصوص النثرية ينبغي أن تجمع وتبحث وحدها حتى تستخرج خصائصها، أما أن نجمع النثر والشعر معا، ونحاول أن نقعد لهما دون أخذ الاختلافات بينهما بعين الاعتبار فذلك لا يكون .[8]
- لم يستعن أصحاب المنهج الآني الوصفي بالمنطق الأرسطي الذي يؤدي إلى الاضطراب والجدل، يقول محمد عيد : " إن منطق اللغة يختلف تماما عن المنطق الأرسطي لأن اللغة نتاج كل أفراد المجتمع، وهؤلاء الأفراد يختلفون فيما بينهم باختلاف تكوينهم وظروف التكلم التي تواجههم، فناطقو اللغة ليسوا أجيالا من الفلاسفة والمفكرين حتى يتحكم في لغتهم منطق أرسطو وقضاياه."[9]

ومن هنا يتبين لنا أن المنهج الآني الوصفي لغوي صرف خالص، يعالج اللغة كما هي، دون أية فروض أو افتراضات أو آراء شخصية، الأمر الذي يفضي في نهاية المطاف إلى نتائج توافق واقع اللغة .

المنهج الوصفي في التراث اللغوي العربي :

ما من أحد يشك – أو يشكك – في أن الدراسات اللغوية العربية لعلمائنا القدامى الأولين كانت قد اتخذت المنهج الوصفي سبيلا لتصنيف نتائجها على النحو الذي وصلنا من نحاتنا الأوائل : كالخليل (ت 177 هـ) وسيبويه (ت 180 هـ) والكسائي (ت 189 هـ) ومن عاش قبلهم بقليل ، وبعض من جاء بعدهم من العلماء الأفذاذ الذين ساروا على النهج القويم كأبي الفتح ابن جني (392هـ) وعبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) ويوسف بن أبي بكر السكاكي (ت 626 هـ) والرضي الاستراباذي(686هـ) وغيرهم..

فقد بدأ العرب منذ الرعيل الأول من العلماء بجمع المادة اللغوية من أماكنها الصحيحة التي اعتقدوا أنها مناطق اللغة الفصحى البعيدة عن اللحن والبعيدة عن مناطق التأثر باللغات الأجنبية المحيطة بشبه الجزيرة العربية .

ولقد كان جل اهتمام اللغويين العرب المتقدمين أن يجمعوا النماذج من نصوص اللغة المتحصل عليها، فينظروا فيها ويدرسوها، ويستقرئوا تراكيبها، ويلاحظوا علائقها بعضها مع بعض ويدققوا فيها ، ليضعوا بعد ذلك ما يتفق في البناء والتركيب، مصطلحين على كل نوع من أنواع التصنيف اسما معينا ، وذلك بحسب علاقاته بسائر الوحدات الأخرى في داخل

التراكيب، فالفعل سمي بذلك الاسم لكونه دالا على حدث مقترنا بزمن، والفاعل سمي فاعلا لقيامه بالفعل أو الحدث، والمفعول سمي كذلك لكونه فعله الفاعل ، أو وقع عليه فعل الفاعل .

وإذا ما حاولنا إيجاد صلة بين هذا المنهج في الدرس اللغوي العربي المتقدم والدرس اللساني الحديث ، الذي تزعمته جماعة البنويين في أوروبا ، لرأيناها واضحة المعالم من خلال الأسس التي قام عليها المنهج البنوي الذي برز إلى الوجود بدراسات فيرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure المنشئ الحقيقي لهذا المنهج على لسان الدارسين المحدثين.

لقد قام المنهج الآني الوصفي على مفهومين أساسين هما :

أ – الوصف .

ب– التصنيف .

وكان هذا المنهج قد أقصى النظر في تاريخ اللغة المدروسة وتطورها و أولى بداياتها ونشأتها ، وعلاقتها بتاريخ الناطقين بها ، ونظر إليها على أنها شكل وبناء ثابت آني غير متغير ، فوُصف بذلك على أنه صوري شكلي ، لأنه ينظر للصور النظرية المختلفة ، داخل أي لغة ، ثم يصفها على أساس معين ، كما يصف العلاقات القائمة بين كلماتها في تراكيبها المختلفة وصفا موضوعيا[10]، ثم يقوم بتصنيف النتائج المتوصل إليها – كما تبدو – تصنيفا مميزا بين المؤلفات التي تتكون فيها التراكيب .

هذه الخطوات نفسها اتخذها اللساني العربي الأول حينما تجرد لدراسة اللغة العربية، فكان بحق يمثل باحث اللغة المعاصر يدرسها كما يدرس أية ظاهرة من الظواهر الاجتماعية، بالملاحظة والاستقراء ثم التقعيد، أي وفق منهج علمي صارم.

والمنهج الوصفي لم يكن حكرا على الدراسة اللغوية العربية أو المعاصرة ، بل تعدى ذلك إلى أزمان غابرة سحيقة وعريقة، فقد عُرف في العالم القديم حينما درس قدماء الهنود اللغة السنسكريتية القديمة وتوجوا أعمالهم بصنيع (بانيني) الذي صنف كتابا مهما في دراسة السنسكريتية " الذي يرجع إلى ما بين (350) و(250) قبل الميلاد، وهو من أعظم آثار الذكاء الإنساني إذ أنه يصف أدق وصف كل تصريف واشتقاق وتركيب ، واستعمال نحوي في كلام مؤلفه،فلم تحظ لغة أخرى إلى يومنا هذا بوصف له هذه الدرجة من الكمال".[11]

المنهج الوصفي في الدرس اللغوي الحديث :

إن ما يهمنا من هذا الاستهلال البسيط أن المنهج الذي سلكه المتقدمون سواء العرب أم غيرهم من الأمم، كان منهجا وصفيا آنيا ، وهو ما أقره البنويون وشيدوا عليه دراساتهم اللسانية، حتى وإن كانوا قد خرجوا بكثير من الخصوصيات التي فرضتها عليهم ظروف العصر، وظروف اللغات المدروسة، وهذا الذي سنحاول فيما بعد تبينه عند مقارنة ظروف العربية وظروف اللغات التي أخضعها المنهج البنوي للدراسة والتحليل، كالالتزام بمفهوم (التزامنية) وبتر الصلة بين اللغة وتاريخها ، ودرس اللغة من حيث هي لغة، كما هي ، أو كما تظهر ، تدرس لغرض الدراسة نفسها ، بشكل موضوعي ، والغاية من ذلك كله الكشف عن حقيقتها[12] . وهذا كله ما جاء إلا كرد فعل للدراسات اللغوية التاريخية المقارنة . في حين كان الهدف الأساس من دراسة العربية على ما اتضح من دراسة الأولين لها متعلقة بقضية صون اللسان العربي من اللحن الذي تفشى في المجتمع آنذاك ، وتحويلها إلى لغة عالمية بالكشف عن قوانينها وقواعدها لجميع المنضوين تحت ظل الدين الجديد، ولارتباطها بدستور المسلمين القرآن الكريم، ولا ريب في ذلك كله، فهي أساس نقل الدين إلى الآخرين، ولذا فهي من الدين، كما اتفق الأقدمون والمحدثون .

فاللغة العربية – إذن – لم تكن دراستها إلا وفق المنهج الوصفي الذي يعد اليوم أساس المنهج البنوي اللساني . ولئن وصف النحو العربي والدرس اللساني العربي بأنه معياري كونه يفرض سلطانه وقانونه على المتكلمين باللغة .. فإنه جحود للحقيقة وبعد عن الحق ، فالمنهج المعياري طريقة متبعة في صياغة الألفاظ والعبارات عن طريق القياس، ومراعاة المستوى الصّوابي في الاستعمال. والمستوى الصوابي " معيار لغوي يرضى عن الصواب، ويرفض الخطأ في الاستعمال، وهو الصوغ

القياسي لا يمكن النظر إليه باعتباره فكرة يستعين الباحث بواسطتها في تحديد الصواب والخطأ اللغوي، وإنما هو مقياس اجتماعي يفرضه المجتمع اللغوي على الأفراد، ويرجع الأفراد إليه عند الاحتكام في الاستعمال" .[13]

والنحو لا يصبح معيارا إلا بعد قيام البحث الوصفي بواجبه المقصود في ملاحظة النماذج المستقاة واستقرائها ثم وضع القواعد ، وعندما تتم مرحلة التقعيد ، وتصبح معايير ملتزمة .. تطبق على المتكلمين كما تطبق القوانين والأحكام على أفراد المجتمع ، فليس هناك دراسة معيارية " تفرض سلطة قوانين نمقها اللغويون على ظواهر من سلوك المجتمع ، وهؤلاء اللغويون يتصرفون بكبرياء عن مرارة التعمق في فلسفة اللغة ...الخ "[14]، كما ينقل تمام حسان عن مالينوفسكي Malinowski ، و يرى أن :" تاريخ دراسة اللغة العربية ليعرض علينا في بدايته محاولة جدية لإنشاء منهج وصفي في دراسة اللغة يقوم على جمع اللغة وروايتها ، ثم ملاحظة المادة المجموعة واستقرائها ، والخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة وصف اللغة السليم، ولكن بعض الأخطاء المنهجية في طريقتهم لم تمكنهم من الخلاص من النقد ..."[15]

والمتتبع لهذا الكلام يلحظ أن تمام حسان يرى عدم استمرار الدراسات العربية استخدام المنهج الوصفي في مراحل اللغة التاريخية التي مرت بها خلال عصور الحضارة الإسلامية ، فعد ذلك مأخذا على الدرس اللغوي العربي ، ووصفها بالانطوائية.
والحق أنه هناك ملاحظات يمكن أن نطرحها الآن حول خصوصية العربية ، واللغات التي تبقى خاضعة للدراسات الوصفية.

إن اللغة العربية مختلفة عن سائر لغات العالم في أصولها وتاريخها وفي حياتها ونشأتها، فهي – إلى حد اليوم – لا تزال قائمة على أسسها المتينة، وأعمدتها الصلبة، لم تصبها الهزات التي أصابت مثيلاتها من اللغات الأخرى، ولم تؤثر فيها السنون الطوال، فالنصوص التي بنى الدارسون عليها أبحاثهم وملاحظاتهم، وخرجوا منها بالقواعد والقوانين ، لا تزال معينا ثرا خصبا لا ينضب، ولا تزال القيم التي تعد معايير للفصاحة والبيان الناصع للشعراء والخطباء والكتاب والمؤلفين كما هي، لم يمسسها شيء من التغيير أو التبديل على الرغم من تغير الظروف والأحوال، واختلاط المجتمعات والأمم، وتنوع الثقافات، واختلاف الأفكار والآراء ، فشعر محمود سامي البارودي و أحمد شوقي و حافظ إبراهيم و بدر شاكر السياب ونازك الملائكة و معروف الرصافي ، وحتى نزار قباني و محمود درويش وأحمد مطر وغيرهم.. من الأدباء المعاصرين الذين نظموا أشعارهم وفق تراكيب عربية محضة، تعترف بها قوانين الفصاحة العربية ، وتتقبلها القواعد العامة للغة.

وما يقال في الشعراء يقال أيضا في الكتاب والنثار من الروائيين والقُصاص والخطباء والمؤلفين، و يصلح كله مادة للبحث بأنه سليم، بل إن التمييز بين لغة هذا وذاك، أو فصاحة هذه القصيدة وضعف تلك، يقوم على أسس ثابتة رصينة مستمدة من القوانين اللغوية الثابتة المعروفة . وذاك كله إنما ثبت للعربية ولم يثبت لغيرها من اللغات، لأن العربية تناسلت تناسلا طبيعيا، واحتفظت بأصالتها وأصولها: الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية والمعجمية منذ أقدم عصورها فيما تناقلته الأجيال العربية من نصوصها الأدبية:(الشعر، الأمثال والحكم، سجع الكهان، الخطب)، وفي الإسلام : (القرآن الكريم، والحديث النبوي، الأمثال، الشعر العربي، الخطب، الرسائل الأدبية، التأليف ..الخ) وفي العصر الحديث :(في الأدب بأنواعه والفنون بأنواعها).

في حين نجد أن اللغات الأوروبية الغربية فقدت هذه الخاصية ، فابتعدت عن أمها، و انسلخت من أصولها، فهاهي اللاتينية قد أصبحت في عداد اللغات الميتة المنسية، ولكن بناتها اللاتينيات قد شبن وكبرن ، وأصبحن لغات لها مكانتها، وقوانينها المتميزة وخصوصياتها المختلفة المتنوعة ، فليست الصلة والترابط واضحتين بين الفرنسية والإسبانية ، وليست هاتان اللغتان قريبتي الشبه بالإيطالية ، بل إن قواعد اللاتينية الأم تختلف اختلافا كبيرا عن قواعد بناتها اللغات المتولدة من صلبها . من هذا المنطلق كان المنهج البنوي الوصفي يقطع الصلة بين اللغة وتاريخها، ومنه أخذ البنويون على عاتقهم أن ينظروا إلى اللغة على أنها الموجودة بالفعل بين أيديهم ، لا يعرفون لها صلة ولا يبحثون في تاريخها، ولا يقارنون بينها وبين ما كانت عليه ، وإنما ينظرون إليها نظرة (شمولية آنية)، ويعني ذلك أنهم مضطرون إلى هذا المنهج من الدراسة اللسانية لما تميزت به اللغة المدروسة من خصوصيات .

ومن هنا يتبادر إلى الأذهان هذا التساؤل : هل حصل للعربية هذا الانسلاخ عن الأصل حتى يجعلنا نضطر إلى تطبيق المنهج من جديد لدراستها ووضع قواعد لها وفقا لمتطلبات مرحلتها الجديدة ؟! وما نحسب أننا لو طبقنا المنهج الوصفي البنوي في دراسة النصوص العربية الصحيحة في عصرنا هذا خارجين بأكثر مما خرج به نحاة العربية الأوائل من أحكام وقواعد حتى ولو أتيحت كل الوسائل والسبل الحديثة .

أما فيما يخص ما وجهه تمام حسان من نقد فإننا لا نراه ينطبق على العربية كما هو منطبق على اللغات الأخرى التي تستخدم المناهج الحديثة في دراسة اللسان البشري، وإذا كان لابد من توجيه نقد للدرس اللغوي العربي فإنه لا يكون من هذه الزاوية، بل لعله يكون من جهات أخرى كالإغراق في التأويلات، والتمحلات العقلية، والتعسف في استخدام مفهوم العامل، والسعي وراء العلة والمعلول والعلل الثواني وما ينجر عليها، وغيرها مما كان نقدا معروفا عند القدماء– المتأخرين منهم خاصة – والمحدثين . وإلا فإن المنهج البنوي في اللسانيات الحديثة قد وجه إليه أكثر من نقد[16]، وتفرع إلى أكثر من مذهب، حتى عد البعض من البنويين المنهج البنوي عبارة عن لقاءات ذهنية بين أفراد يعملون في هذا الميدان.[17]

ولعل أبرز الباحثين اللسانيين الغربيين الذين حادوا على المنهج الوصفي البنوي هو عالم اللسانيات الأمريكي الشهير نعوم تشومسكي Noam Chomsky في أشهر ما كتب (البنى التركيبية أو النحوية)الذي أسس من خلاله نظريته في(النحو التوليدي – التحويلي)، فقد تجاوز فيه المفهومين الأساسين (الوصف والتصنيف) اللذين وضعهما دي سوسير في نظريته وتبنتهما المدرسة البنوية الأوروبية ، وتوصل تشومسكي في نحوه التوليدي التحويلي إلى مفهوم إضافي آخر وهو مفهوم (الإبداع) في اللغة الذي ميز البشر عن سائر المخلوقات في هذا الكون الفسيح. و عد المتكلم مبدعا في حين عده دي سوسير مقلدا، فهو مجرد آلة يردد ما عرف من الصيغ و التراكيب.

ومع ذلك كله فإن المنهج الآني الوصفي الذي كان قد اتخذ من الوصف والتصنيف أساسا له في دراسة اللسانيات ، بدأ بالتراجع أمام النظرات الجديدة في عالم الدراسات اللسانية الحديثة . فما جاء به تشومسكي من رؤى لغوية أصبح في عرف جون لاينز John LYONS(1963 م) ذا أهمية ثورية في تاريخ اللسانيات المعاصرة، كما أن لكل من بلومفيلد Bloomfield في توزيعيه وتروبتسكوي Troubetzkoy في مقابلاته اللفظية، وجاكبسون Jakobson في عناصره التفاضلية وغيرهم في اتجاهاتهم الخاصة في الدراسة اللغوية طريقا ونظاما يختلف فيه عن سابقه ولاحقه يقول جان بياجيه Jean Piaget: "... ثم أصبحت البنية مع هجلمسليف Hjelmslev يليه : ف : بروندالViggo Brondal. وتوجيه Taugee – دون التعرض للمجالات الدلالية لـ: ج . ترير J. Terrier – أصبحت كيانا خاصا ذات ارتباطات داخلية، وإذا كان هناك نظام وراء كل دعوى فالسياق ليس سوى الممر من نظام إلى آخر، وهو ممر غير مكون ولكنه عائد للرسوخ المكتسبة من النظام الثاني بمقتضى التفاعلات المتزامنة كليا..."[18]

يركز المنهج البنوي في اللسانيات الحديثة اهتمامه على دراسة اللغة كما هي موجودة في الواقع من دون افتراضات وتوقعات، أو كما وصلت إليه في زمن الدراسة للكشف عن كنهها وحقيقتها ، ويعني ذلك أننا أمام أمرين أساسين هما :

أ)– ينبغي دراسة أية لهجة من اللهجات باعتبارها وسيلة للتواصل والإبلاغ بمنأى عن صلتها باللغة الأم أو معرفة أصولها التي تطورت عنها، وذلك راجع إلى أن المنهج البنوي يجعل كل لغة – أو لهجة – نظاما متكاملا مستقلا من أنظمة الرمز العرفي . ولما كانت نظاما فإنه يتوجب علينا أن نطبق عليها المنهج ، فنصفها ونصنف قواعدها، ونكشف عن العلاقات بين المؤلفات، ومن هنا رأى تمام حسان في كتابه الشهير (العربية معناها ومبناها) إقرار منهج ينبني على شرطين :[19]

– على الباحث أن يدرس لهجة واحدة من لهجات لغة ما ، فلا يخلط في دراستها بينها وبين لهجة أخرى من اللغة نفسها.

– أن يعنى في هذه الدراسة الوصفية الآنية بمرحلة زمنية واحدة من مراحل تطور هذه اللهجة .

وحجيته في ذلك تنبني على اعتبارين :

أولهما : كل لهجة تمثل نظاما متكاملا مستقلا من أنظمة الرمز العرفي – كما سبقت الإشارة – بحيث ترمز كل علامة فيه إلى معنى معين يختلف عما هو موجود في اللهجة الأخرى ، قد يصل إلى التضاد كما الحال في لهجات العربية القديمة . وذلك أن الأعراف والعادات الاجتماعية تختلف من مجتمع إلى آخر .

والاعتبار الثاني : أنه ينبغي للدارس اللساني أن يفصل بين أطوار اللهجة ، إذا ما أراد أن يضع نحو لهجة واحدة بعينها في دراسة يرجى لها أن تكون وصفية لا تأريخية .[20] أما إذا أراد دراسة تاريخ تطور اللهجة ، دعاه ذلك إلى دراسة الأطوار المتعاقبة ، وعندئذ تصبح تاريخية مطلوبة لذاتها .

والموقف – الآن – من هذا المنهج يرجع بنا إلى مستهل الحديث في هذا البحث الذي قررنا من خلاله أن العربية ثابتة الأصول راسخة القيم ، موفورة النصوص السليمة خلال تاريخها الطويل ، وهي تمثل لغة مجتمع واحد ذي تقاليد وأعراف وقيم دينية وتراثية واحدة، وهذه اللغة مرتبطة ارتباطا جذريا و جوهريا بالمجتمع العربي الإسلامي منذ أقدم عصوره حتى اليوم ، واحتفظت له بقيمته وحضارته ، وتراثه الفكري والفلسفي والعلمي ، كما هي اليوم أساس توحده وترابطه السياسي والديني والتاريخي والاجتماعي ، فما الذي تقدمه دراسة لهجة من لهجاته الخاصة أو المحلية في أي جزء من أجزائه مترامية الأطراف.. إذا تم دراسة اللهجات على أنها أنظمة لغوية مستقلة ؟ يعني ذلك أننا نضع حدودا – مرغمين – بين أجزاء المجتمع الواحد الذي تلم شمله اللغة العربية الواحدة ذات النظام المحكم، والمقاييس الثابتة والأصول المتينة، فليست دراسة اللهجات المعاصرة مجدية إذا كانت الغاية منها وضع نحو خاص لكل منها، فإننا – عندئذ – سنكون أمام المئات من القواعد والأحكام اللغوية المختلفة التي هي نتاج لتأثر هذه اللهجات عن طريق الاحتكاك أو المجاورة أو الترجمة أو التوليد بغيرها من اللغات، ثم إن قضية اختلاف المجتمعات بشكل جوهري لم يكن صحيحا إلى حد يوجب معه دراسة لهجته بمفرده بغية الكشف عن نحو هذه اللهجة، أو معرفة تقاليده من خلال لهجته، فالمجتمع الجاهلي كان قد انقسم إلى وحدات لغوية معروفة باسم القبائل كتميم وقيس وأسد ومضر وقريش وطيء وكنانة وهذيل وعبس وذبيان وغيرها من القبائل العربية الكثيرة .

ولكن التقاليد والعادات والأعراف الاجتماعية الجاهلية من حياء وكرم ووفاء ونخوة ومروءة وفروسية وبطولة ، وحماية الجار وغيرها .. كانت تقريبا واحدة ، فحين درست اللغة – وكانت نصوصها قد نقلت من بضع قبائل معروفة عند الدارسين– كانت الدراسة قد استقرت على أحكام وقواعد تمثل الجمهور الأعظم من لغات العرب ، وتختلف بعض أحكام لهجة عن أخرى في قضايا الأصوات والدلالات وذلك واضح في(الكشكشة) و (الكسكسة) و (التلتلة) و (العنعنة) و (الطمطمانية) و (العجرفة) و (العجعجة) ..الخ من الظواهر الصوتية اللهجية التي اتصفت بها بعض المناطق أو القبائل ، وفي الأضداد و الترادف و المشترك ... إلى غير ذلك .

أما من ناحية النظام والبناء والتراكيب والصيغ والأوزان فقد كانت واحدة، ومع ذلك فإن اللغويين القدامى الذين وصفوا لغة العرب واستقرأوا تراكيبها لم تتضح لديهم الإشارة إلى ما كان يمثل اتجاها لهجيا متميزا ومتفردا عن جمهور لغة العرب ، وإن كان ذلك الاتجاه قليلا ونادرا ، لا يمثل ظاهرة لغوية تستحق أن يجعل لها اللغويون القدامى دراسة خاصة بها، ومن هنا كانت أحكام القلة والشذوذ والندرة والضعف والغرابة تسير جنبا إلى جنب مع أحكام القواعد الكلية العامة للغة .

إن دراسة اللهجات تكون لأجل أحد هذه الأمور :

أ – معرفة صلتها باللغة السليمة (الأم).

ب– اختلافها عن اللغة العامة في بعض الأحكام الصوتية والدلالية .

ج– جهة الغرابة فيها عن سائر اللهجات المنبثقة عن اللغة الأم .

د – صلتها بالمجتمع المتكلم بها وتطورها معه .

هـ– تأثرها أو تأثيرها بما يجاورها أو يحتك بها من اللغات أمر يقره منطق البحث العلمي وأساليب الثقافة و المعرفة..

أما دراستها لأجل وضع نحو خاص بها – وخاصة لهجاتها العربية – فهذا مالا يقره البحث العلمي ولا ترضاه ظروفنا السياسية والاجتماعية .

ب)- أما المسألة الثانية التي يقرها المنهج البنيوي فهي دراسة اللغة المعاصرة دراسة تزامنية ، تقوم على الوصف ، ولغتنا اليوم لو أتيح لها مثل هذا المنهج ، لوجب – إذن – أن تكون النصوص بعد استبعاد ما قررناه في المسألة المتقدمة مما أنتجته قرائح الأدباء والشعراء والكتاب . وأدباؤنا و مثقفونا – جلهم إذا لم يكونوا كلهم – استمدوا ثقافاتهم اللغوية والأدبية من النصوص التي يتداولها المجتمع كالقرآن والحديث والشعر العربي وكتب الأدب ونصوصه المتنوعة ، فهي بين ظهرانيهم بين السماع والقراءة ، تؤثر فيهم وتوجه وعيهم اللغوي دائما إلى صواب التعبير ، وجماله ومن جملة هذه الأصول اللغوية تكونت شخصيات أدبائنا كطه حسين و عباس محمود العقاد وصادق الرافعي و معروف الرصافي وأحمد شوقي و حافظ إبراهيم، وبدر شاكر السياب ، ونزار قباني، والمختار السوسي وشاعر الحمراء وعمر أبي ريشة ، وإيليا أبي ماضي وجبران خليل جبران وغيرهم .. ممن ملأوا الدنيا بإنتاجاتهم الأدبية والعلمية، ولا يمكن القدح بسلامة كتابات هؤلاء وأساليبهم التعبيرية لم يخرج واحد منهم على قاعدة لغوية رسمها النحو العربي القديم ، ولم يحاول أحد منهم أن يلغي الفاعل أو المبتدأ أو ينكر الحال ، أو يجر المرفوع أو يرفع ما بعد حروف الجر...الخ ، ولئن كان هناك ما يميز هذا عن ذاك فإن ذلك يكمن في اختلاف القدرات التعبيرية ، واختلاف الثروات اللغوية التي تمكن هذا من استخدام هذه المفردات واستبعاد غيرها ، كما تكمن في قدراتهم المختلفة على التصوير والتخيل ، ورسم أشكال المعاني والأغراض ، بأساليب البلاغة كالاستعارات والتشبيهات ، وطرق المجاز المتنوعة .

لذلك كله نرى أن استعمال المنهج الوصفي لدراسة النص اللغوي العصري المتمثل في مثل هذه النماذج لن يجرنا إلى نتائج بعيدة عن ما قررته الدراسة اللغوية العربية في عصور تقعيد اللغة وبرمجة قوانينها .

هذا لو فرضنا أن الدراسة اقتصرت على النماذج التي أنتجتها قرائح أدباء العصر ومفكريه، فإذا انضمت إليها نصوص اللغة الأخرى فيما وصل إلينا من تراثها العلمي والأدبي فإن ذلك حتما سيعضد الصورة التي ترتسم في أذهاننا عن قواعد النحو والبنية العصرية .

ويبدو أن القوانين والأنظمة التي وضعها الدارسون العرب في الفونولوجيا (الدراسة الصوتية للغة) والصرف والتركيب والدلالات من طريق وصفهم للغة ، كانت ترمي إلى الثبات والبقاء دون تغيير ، وذلك من منظور المحافظة على كيان اللغة وهيكلها خلال قرون طويلة آتية ، واضعين مستقبل المجتمع العربي وتطوراته ، والتغيرات المحتملة على بنيته الاجتماعية والنفسية وحتى الحضارية في حسبانهم ، وذلك لحماية المد الحقيقي للغة الواحدة الجامعة لشعوب العالم الإسلامي المتمثلة في القرآن والحديث وسائر نصوص الأدب الأخرى كما سبقت الإشارة ، وهذا الذي أزعمه هنا ، هو محض الحقيقة التي توصلت إليها الباحثة الفرنسية أوديت بيتين في بحثها (في فونولوجيا اللغة العربية) فقد انتهت في آخر دراستها إلى القول : " ونلاحظ – بشكل عابر – أن مفهوم الذكرى ، ومفهوم الهوية الفردية – كثيرا – ما يترددان على ألسنة العرب .

ولكن لكي نعود إلى الوصف الصوتي الذي حاولنا القبض عليه من خلال كتاب عبد السلام الفاسي ، فإننا نقول : إن هذا الوصف يقع بالنسبة لمنظور علماء الفونولوجيا ، على المستوى الذي يظهر فيه (المعنى المحض) وذلك لأنه قد استخلص من حقيقة فريدة على الصعيد التاريخي ، أو على الصعيد الظرفي والإنساني باعتبارها تقوم على الوحي القرآني ، كما عبر عنه النبي محمد والذي يغدو فيه غير القابل للتوصيل ، كما هو الأمر لدى الشاعر، حد تبادل . يضاف إلى ذلك انه ، من أجل حماية غير القابل للتوصيل هذا ، انصرف العلماء العرب إلى وصف التعبير آملين من ذلك استبعاد كل تغيير محتمل ، وبهدف أن يؤمنوا انتقاله وانتشاره بشكل جيد"[21]، ثم تقول :" إن الطريقة التي استخدمها العرب من خلال ، تعبير فريد يتم القبض عليه في كثافة حقيقية غنية بالممكنات تهدف إلى أن نستخلص شبكة العلاقات التي ستوضح طبيعة المدلولات الصادرة عنها ، وفق طريقة السيونتيكا المعاصرة".

ثم تختم حديثها بقولها : ولعلنا نستطيع أخيرا أن نقول إن إرادتهم بناء نظرية للتعبير اللغوي اعتبارا من شهادة وحيدة على لغتهم تقوم بدور (النموذج) للجماعة الإسلامية يمكن أن تدل على أنه بعد أمد وجيز من فترة الوحي عمل العرب على أن يسجلوا العلاقات التي تمارسها اللغة العربية مع الإسلام ، المصدر الثقافي الأصولي [22] .

وهذا الذي تراه أوديت بيتي هو الذي نقوله اليوم – ونؤكده ذلك أن العربية تحتضن نموذجها المثالي لغة القرآن ، وسائر نصوص اللغة الأخرى ، وإن هذه اللغة لقيت الحماية المستمرة بوجود أصولها المرجوع إليها ، وإن المعايير التي حددتها الدراسات الوصفية العربية بعد أمد وجيز من فترة الوحي كما تعبر بيتي ، ثبتت بأصولها متساوقة مع المصدر الثقافي الأصولي : الإسلام وكتابه المجيد ، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم وما أنتجه الفكر العربي ، من أدب وفن وثقافة بالحرف العربي المبين .

الخاتمة :

– المنهج الوصفي منهج بحثيّ له أسسه وأطره المتكاملة وعناصره المترابطة أول ما برز عند اللسانيين الغربيّين وبخاصة البنويين وعلى رأسهم دي سوسير وأتباعه وتلاميذه بشكل كبير، لكنَّ هذا لا يدحض أن هناك وجود له في التراث اللغوي العربيِّ مما يدل على سبق العرب إلى مثل هذه الأسس تنظيرًا أو تطبيقًا، فمثلا مرحلةُ جمع العربية الخاصة من أفواه العرب الخُلَّص تطبيقًا عمليًّا لهذا الأساس، وتحديد زمن الدراسة من خلال ما يعرف بعصور الاحتجاج ليكون هذا الإطار الزماني حافظًا لصحة نقلهم العربية عن العرب الفصحاء وتحديد البيئة المكانية و بعض القبائل التي يأخذون منها اللغةَ ، فقد وصفوا الحواضر وأطراف الجزيرة بأنها لا تمثل لغتُها لغةَ العرب تمثيلًا صحيحًا؛ لتعرُّضها لمؤثرات أجنبية .

–أدرك علماء العربية الأوائل أهميةَ وحدة المستوى اللغوي فقصروا عملية الجمع على مستوى معين ، هو اللغة العربية الفصيحة ، والتي كان من أهم مصادرها القرآن الكريم وقراءاته المختلفة ، والحديث النبويُّ الشريف ، وكلامُ الفصحاء.

–يرتكز المنهج الوصفي بشكلٍ كبير على السماع وهو من العمليات العقلية الاستدلالية التي يستند إليها لحل جوانب الظاهرة اللغوية ، لأن الخطوات التالية للبحث إنما تكون بعد جمع المادة التي تجري ملاحظتها ودرسها.

–إن الوصفيين المحدثين يعطون اللغة المنطوقة أهمية قصوى ، وقد أدرك علماء العربية الأولون أهميتها فانكبوا على دراستها واعتمدوها في استقراء الأصول اللغوية، ويظهر ذلك بوضوح في وصفهم الأصوات اللغوية .

–من أهم الإجراءات المنهجية عند الوصفيّين مرحلة التصنيف ، التي تعتمد على استقصاء ظواهر اللغة بوسائل متنوعة عن طريق تصنيفها إلى مستويات لغوية تسهّل وصفها وتحليلها، والخروج بنتائج دقيقة لها.

الهوامش والإحالات :

(1)– تمام حسان ، اللغة بين المعيارية والوصفية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط 4 ، 2000 ، ص : 127 – 128 .

(2)– ماريو باي ، أسس علم اللغة ، ص : 121 . وينظر : تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص: 159 – 160 .

(3)–ينظر : السابق ، ص : 31 ، وتمام حسان ، مناهج البحث اللغوي ، ص : 11 .

(4)–ينظر : تمام حسان ، اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص : 31 .

(5)– خرما نايف ، أضواء على الدراسات اللغوية ، عالم المعرفة ، الكويت ،1978 ، العدد: 09 ، ص : 51 .

(6)– تمام حسان ، اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص : 31 .

(7)– تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية العامة ، ط 3 ، 1985م ، ص : 13 .

(8)– محمد صلاح الدين مصطفى ، النحو الوصفي من خلال القرءان الكريم ، مؤسسة علي جراح الصباح ، الكويت ، ص : 23 .

(9)– محمد عيد ، أصول النحو العربي ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1977 ، ص : 67 .

(10) – محمود السعران ، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص : 225 .

(11)– تمام حسان ، اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص : 24 .

([12])– ينظر : إبراهيم زكرياء ، مشكلات فلسفية ، مشكلة البنية ، دار مصر للطباعة ، ص : 48 .

([13])– تمام حسان ، اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص : 72 .

([14])–ينظر : المرجع نفسه ، ص : 27.

([15])– المرجع نفسه ، ص : 28 .

([16])– ينظر : جان بياجيه ، البنيوية ، تر: عارف منيمنة وبشير أوبري ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، ط :4 ، 1985 ، ص : 17 . ومقدمة مشكلة البنية لإبراهيم زكرياء .

([17])– نهاد الموسى ، نظرية النحو العربي ، ص : 20 .

([18])–جان بياجيه ، البنيوية ، ص : 67 .

([19])– تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، ص : 13 – 14 .

([20])– المرجع نفسه ، ص : 14 .

([21])– أوديث بتي ، في فونولوجيا اللغة العربية ، مجلة المعرفة ، 1979، العدد 8 – 9 ، ص : 189 – 190 .

([22])– المرجع نفسه، ص : 190 .